يقول الحق سبحانه :

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

فداود وسليمان ـ عليهما السلام ـ نبيان ، لكل منهما مكانته ، وقد أعطاهما الله حُكْماً وعلماً ، ومع ذلك اختلف قولهما فى هذه القضية ، فما توصَّل إليه سليمان لا يقدح فى عِلْم داود ، ولا يطعن فى حُكْمه .

وما أشبه حُكْم كُلٍّ من داود وسليمان بمحكمة درجة أولى ، ومحكمة درجة ثانية ، ومحكمة النقْض ، ومحكمة الاستئناف ، وإياك أن تظن أن محكمة الاستئناف حين تردُّ قضاء محكمة درجة أولى أنها تطعن فيها .

فهذا مثل قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء] فجاء بحكْم غير ما حكَم به أبوه ؛ لذلك فالقاضى الابتدائى قد يحكم فى قضية ، ويتم تأجيلها إلى أنْ يترقى إلى قاضى استئناف ، فيقرأ نفس القضية لكن بنظرة أخرى ، فيأتى حُكْمه غير الأول .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء] حينما جمع السياق القرآنى بين داود وسليمان أراد أنْ يُبيِّن لنا طَرفاً ممَّا وهبهما الله ، فقوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء] مظهر من مظاهر امتيازه ، وهنا يُبيِّن ميْزةً لداود عليه السلام : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

والتسخير : قَهْر المسَخَّر على فعل لا يستطيع أنْ ينفكَّ عنه ،

وليس مختاراً فيه ، ونلحظ هنا الارتقاء من الأدْنى إلى الأعلى : أولاً : سخَّر الجبال وهى جماد ، ثم الطير وهى أرْقَى من الجماد ، لكن إنْ تصوَّرْنا التسبيح من الطير ؛ لأنه حَىٌّ ، وله روح ، وله حركة وصوت مُعبِّر ، فكيف يكون التسبيح من الجبال الصماء ؟

بعض العلماء حينما يستقبلون هذه الآية يأخذونها بظواهر التفسير ، لا بُعمْق ونظر فى لُبِّ الأشياء ، فالجبال يروْنها جامدة ، ليس لها صوت مُعبِّر كما للطير ؛ لذلك يعجبون من القول بأن الجبال تُسبِّح ، فكيف لها ذلك وهى جمادات ؟

لكن ؛ ما العجب فى ذلك ، وأنت لو قُمْتَ بمَسْح شامل لأجناس الناس فى الأرض ، واختلاف لغاتهم وألسنتهم وأشكالهم وألوانهم بحسْب البيئات التى يعيشون فيها ، فالناس مختلفون فى مثل هذه الأمور متفقون فقط فى الغرائز ، فالجوع والعطش والخوف والضحك والعواطف كلها غرائز مشتركة بين جميع الأجناس ، وهذه الغرائز المشتركة ليس فيها اختيار .

ألم تَرَ إلى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم] فما دام أنه سبحانه الذى يُضحِك ، والذى يُبكِى ، فلن نختلف فى هذه الأمور .

فالكلام - إذن - من الأشياء التى يختلف فيها الناس ، وهذا الاختلاف ليس فى صوت الحروف ، فالحروف هى هى ، فمثلاً حين ننطق (شرشل) ينطقها أهل اللغات الأخرى كذلك : شين وراء وشين ولام ، فنحن - إذن - متحدون فى الحروف ، لكن نختلف فى معانى الأشياء .

وقد يعزّ على بعض الحناجر أن تنطقَ ببعض الحروف بطبيعة تكوينها ، فغيْر العربى لا ينطق الضاد مثلاً ، فليس عندهم إلا الدال ، أما فى العربيّة فعندنا فَرْق بين الدال المرقّقة والضاد المفخّمة ، وفرْق بين السين والثاء ، وبين الزاى والذال ، وبين الهمزة والعَيْن ، لذلك نجد غير العربى يقول فى (على) : ألي ، فليس له قدرة على نُطْق العين ، وهو إنسان ناطق بلغة ومُتكلِّم .

فإذا كنا - نحن البشر - لا يفهم بعضُنا لغات بعض ، فهذا عربى ، وهذا إنجليزى ، وهذا فرنسى .. الخ فإذا لم تَتعلم هذه اللغة لا تفهمها .

ومعلوم أن اللغة بنت المحاكاة وبنت السماع ، فما سمعتْه الأذن يحكيه اللسان ، والأبكم الذى لا يتكلم كان أصمَّ لا يسمع ، والطفل ينطق بما سمع ، فلو وُضِع الطفل الإنجليزى فى بيئة عربية لنطق بالعربية .. وهكذا .

فلماذا نعجب حين لا نفهم لغة الطَّيْر أو لغة الجمادات ، وهى أشياء مختلفة عنّا تماماً ، فلا يعنى عدم فَهْمنا للغاتهم أنهم ليست لهم لغة فيما بينهم يتعارفون عليها ويُعبِّرون بها .

إذن : لا تستبعد أنْ يكونَ للأجناس الأدْنى منك لغات يتفاهمون بها وأنت لا تفهمها ، بدليل أن الله تعالى أعطانا صورةً من لغات الطير ، وهذه يعلمها مَنْ علَّمه الله ، كما امتنَّ الله على سليمان وعلَّمه لغة الطير ، ففهم عنها وخاطبها .

وقد حكى الحق سبحانه وتعالى عنه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ .. (١٦) ﴾ [النمل] ولولا أن الله علَّمه لغة الطير ما علمها .

وها هو الهدهد يقول لسليمان عليه السلام لما تفقَّد الطير ، ولم يجد الهدهد فتوعَّده : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل]

ونلحظ هنا دقَّة سليمان - عليه السلام - في استعراض مملكته ، فلم يترك شيئاً حتى الهدهد ، ونلحظ أدبه في قوله : ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)﴾ [النمل] فقد اتهم نظره وشكَّ أولاً ، فربما الهدهد يكون موجوداً ، ولم يَرَهُ سليمان .

وانظر إلى قَوْل الهدهد للملك : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ .. (٢٢)﴾ [النمل] ثم معرفته الدقيقة بقضية التوحيد والعقائد : ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ..(٢٤)﴾ [النمل]

ويعترض الهدهد على هذا الشرك ، ويردُّ عليه بشيء خاص به ، وبظاهرة تُهمه : ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ(١) فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٥)﴾ [النمل]

فاختار الهدهد مسألة إخراج الخبْء ؛ لأن منه طعامه ، فلا يأكل من ظاهر الأرض ، بل لا بُدَّ أنْ ينبشَ الأرض ، ويُخرج خبأها ليأكله .

وكذلك النمل ، وهو أقلُّ من الهدهد ، فقد كان للنملة مع سليمان لغة ، وكلام ، وفَهْم عنها : ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. (١٩)﴾ [النمل]

---

(١) الخبأ : المخبوء المخفيّ . [القاموس القويم ١/١٨٥] . قيل : الخبء الذي في السماوات هو المطر . والخبء الذي في الأرض هو النبات . قيل : والصحيح أن الخبء كل ما غاب . [لسان العرب - مادة : خبأ] .

إذن : كان الكلام للنمل ، لكنْ فَـهمه سليمـان ؛ لذلك قال : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. (١٩)﴾ [النمل]

ذلك لأننا لا نفهم هذه اللغات إلا إذا فَهَّمنا الله إياها .

ومع هذا حينما وقف العلمـاء أمام هذه الآية ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. (٧٩)﴾ [الأنبياء] قالوا : يعـنى تسبيح دلالـة ، فهى بحالها تدلُّ على الخالق سبحانه ، وليس المراد التسبيح على حقيقته ، وأوْلى بهم أنْ يعتـرفوا لها بالتسبـيح ؛ لكنه تسبيح لا نفـهمه نحن ، كما قال تعالى : ﴿وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

والآن نرى فى طموحات العلماء السَّعْى لعـمل قاموس للغة الأسماك ولغة بعض الحـيوانات ، ولا نستبـعد فى المسـتقبل عمل قامـوس للغة الأحجار والجمادات ، وإلا فكيف ستكون ارتـقاءات العلم فى المستقبل ؟ وهذه حقيقة أثبتها القرآن تنتظر أن يكتشفها العلم الحديث .

والمزيّة التى أعطاها الله تعالى لنبيـه داود ـ عليه السلام ـ ليستْ فى تسبيح الجبال ؛ لأن الجبال تُسبِّح معه ومع غيره ، إنما الميزة فى أنها تُردِّد مـعه ، وتوافقـه التسبـيح ، وتجاوبه ، فحـين يقول داود : سـبحـان الله تردد وراءه الجـبال : سـبـحـان الله . وكأنهم جـمـيعـاً (كورس) يردد نشيداً واحداً .

وليس معنى الجماد أنه جـامد لا حياةَ فيه ، فهـو جماد من حيث صورة تكوينه ، ولو تأملتَ المـحاجر فى طبقـات الأرض لوجدتَ بين الأحجـار حيـاة وتفاعـلاً وحركـةً منذ ملايين السنيـن ، ونتيجـة هذه الحركة يتغـير لَوْنُ الحجر وتتغيـر طبيعته ، وهذا دليل الحيـاة فيها ، انظر مثلاً لو دهنتَ الحـجرة لَوْناً معيناً تراه يتغـير مع مرور الزمن ، إذن : فى هذه الجمادات حياة ، لكن لا ندركها .

وسبق أن أشرنا إلى أن الذين يقولـون فى معجزات النبى ﷺ أنه سبَّح الحصى فى يده . أن هذه المـقولة غير دقيقة تحـتاج إلى تنقيح عقلى ، فالحجر مُـسبِّح فى يد رسول الله ، وفىْ يد أبى جهل ، إذن : قل : إن المعجزة هى أن رسول الله سمع تسبيح الحصى فى يده .

فما من شىء فى كـون الله إلا وله حياة تناسبـه ، وله لغة يُسبِّح الله بها ، أدركناها أم لم ندركها ؛ لأن الكلام فـرع وجود حياة ، وكل شىء فى الوجود له حيـاة ، فعلبة الكبريت هذه التى نستعـملها يقول العلماء : إن بين ذراتها تفاعـلات تكفى لإدارة قطار حول العالم . هذه التفاعلات دليل حركة وحياة .

ألم يقُلْ الحق سـبـحانه وتعـالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص]

فكلُّ مـا يقال له شىء ـ إلا وَجْـه الله ـ هالك ، والهـلاك يعنى أن فـيه حـياةً ؛ لأن الهـلاك ضـد الحيـاة ، كمـا جـاء فى قوله تعـالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ (٤٢) ﴾ [الأنفال]

فكُلُّ شىء فى الوجود له حيـاة بقانونه ، وليس من الضرورى أن تسمع الكلام حتى تعـترف بوجوده ، فهناك مثـلاً لغة الإشارة ، وهى لغة مفهومة ومُعبِّرة ، ألاَ ترى مثلاً إلى الخادم ينظر إليه سيده مجرد نظرة يفهم منها ما يريد أنْ يُقدِّمه للضيف مثلاً .

البحـارة لهم إشارات يتـعارفـون عليها ويـتفاهمـون بها . جـهاز التلغـراف لَوْن من ألوان الأداء ووسـيلة من وسـائل التـفـاهم ، إذن : الأداء والبـيان ليس من الـضرورى أنْ يتمَّ بالكلام المـسـموع ، إنمـا تتفـاهم الأجناس ويُكلِّم بعـضهـا بعضـاً كلّ بلغتـه ، فإذا أراد الله أن يفيض عليك من إشراقاته أعطاك من البصيرة والعلم ما تفهم به لغات غيرك من الأجناس .

لذلك يقول تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور]
والتنوين هنا دالٌ على التعميم ، فلكل شيء صلاته التي تناسبه ، وتسبيحه الذي يناسب طبيعته .

والحق - سبحانه وتعالى - حين يعرض قضية التسبيح والخضوع والقَهْر من المخلوقات جميعاً لله يأتي الكلام عاماً في كل الأجناس بلا استثناء ، إلا في الكلام عن الإنسان ، فإن التسبيح والخضوع خاصٌ ببعض الناس .

اقرأ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ .. (١٨) ﴾ [الحج] هكذا بلا استثناء ، أمّا في الإنسان ، فقال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) ﴾ [الحج]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾ [الأنبياء] نعم ، الحق سبحانه خالق كل شيء ، وفاعل كل شيء ، لكن مع ذلك يؤكد هذه الحقيقة حتى لا نتعجب من تسبيح الطير والجماد ، فالله هو الفاعل ، وهو المانح والمحرك.

ثم يقول الحق سبحانه عن داود عليه السلام :

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ[1] لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) ﴾

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٥٠٠) : « الصنعة يكفُّ بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس ، وفي الحديث : « إن الله يحب المؤمن المحترف الضعيف المتعفف ويبغض السائل الملحف » وقد كانت صناعة داود هي صناعة الدروع » .

﴿ عَلَّمْنَاهُ .. (٨٠) ﴾ [الأنبياء] العلْم نقل قضية مفيدة فى الوجود من عالم بها إلى جاهل بها ، والإنسانَ دائماً فى حاجة إلى معرفة وتعلُّم ، لأنه خليفة الله فى الأرض ، ولن يؤدى هذه المهمة إلا بحركة واسعة بين الناس ، هذه الحركة تحتاج إلى فَهْم ومعرفة وتفاعل وتبادل معارف وثقافات ، فمثلاً تشكيل الحديد يحتاج إلى تسخين حتى يصير لَيِّناً قابلاً للتشكيل ، الماء لا بُدَّ أنْ نغليَه لكذا وكذا .. الخ .

وقضايا العلم التى تحتاجها حركة الإنسان فى الأرض نوعان : نوع لم يأمن الله فيه الخَلْق على أنفسهم ، فجاء من الله بالوحى ، حتى لا يكون للعقل مجال فيه ، ولا تختلف حوله الأهواء والرغبات ، وهذا هو المنهج الذى نزل يقول لك : افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

لكن الأمور التى لا تختلف فيها الأهواء ، بل تحاول أن تلتقى عليها وتتسابق إليها ، وربما يسرق بعضهم من بعض ، هذه الأمور تركها الحق - سبحانه - لعمل العقول وطموحاتها ، وقد يلهم فيها بالخاطر أو بالتعلم ، ولو من الأدنى كما تعلَّم ابن آدم (قابيل) من الغراب ، كيف يوارى سوأة أخيه ، فقال سبحانه : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْءَةَ أَخِيهِ .. (٣١) ﴾ [المائدة]

والقضية العلمية قد يكون لها مقدمات فى الكون حين نُعمل فيها العقل ، ونُرتِّب بعض الظواهر على بعض ، نتوصل منها إلى حقائق علمية ، وقد تأتى القضية العلمية بالتجربة ، أو بالخاطر يقذفه الله فى قَلْب الإنسان .

فقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ .. (٨٠) ﴾ [الأنبياء] يصح أن نقول : كان هذا التعليم بالوحى ، أو بالتجربة أو الإلقاء فى الرَّوْع ، وهذه الصنعة لم تكن معروفة قبل داود عليه السلام .

واللَّبوس : أبلغ وأحكم من اللباس ، فاللباس من نفس مادة (لبس) هى الملابس التى تستر عورة الإنسان ، وتقيه الحر والبرد ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ[1] تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. (٨١)﴾ [النحل]

أما فى الحرب فنحتاج إلى حماية أكبر ووقاية أكثر من العادية التى نجدها فى اللباس ، فى الحرب نحتاج إلى ما يقينا البأس ، ويحمينا من ضربات العدو فى الأماكن القاتلة ؛ لذلك اهتدى الناس إلى صناعة الخوذة والدرع لوقاية الأماكن الخطرة فى الجسم البشرى ، وتتمثل هذه فى الرأس والصدر ، ففى الرأس المخ ، وفى الصدر القلب ، فإن سلِمَتْ هذه الأعضاء فما دونها يمكن مداواته وجَبْره .

إذن : اللبوس أبلغ وأكثر حماية من اللباس ؛ لأن مهمته أبلغ من مهمة اللباس ، وهذه كانت صنعة داود - عليه السلام - كان يصنع الدروع ، وكانت قبل داود مَلْساء[2] يتزحلق السيف عليها ، فلما صنعها داود جعلها مُركَّبة من حلقات حتى ينكسر عليها السيف ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ .. (٨٠)﴾ [الأنبياء] أى : تحميكم فى حَرْبكم مع عدوكم ، وتمنعكم وتحوطكم .

إذن : ألهمنا داود عليه السلام ، فأخذ يُفكِّر ويبتكر ، وكل تفكير فى ارتقاء صَنْعة إنما ينشأ من ملاحظة عيب فى صَنْعة سابقة ،

---

(١) السربال : القميص والدرع . وقيل فى قوله تعالى : ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ..(٨١)﴾ [النحل] . إنها القُمُص تقى الحر والبرد ، فاكتفى بذكر الحر كأن ما وقى الحر وقى البرد ، وأما قوله تعالى : ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ .. (٨١)﴾ [النحل] . فهى الدروع [لسان العرب - مادة : سربل] .

(٢) قال قتادة : كانت صفائح ، فأول من مدَّها وحلَّقها داود عليه السلام أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٦٥٠) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير الطبرى وأبى الشيخ فى العظمة .

فيحاول اللاحق تلافى أخطاء السابق ، وهكذا حتى نصلَ إلى شيء لا عَيْبَ فيه ، أو على الأقل يتجنب عيوب سابقه ؛ لذلك يُسمُّونه (آخر موديل) .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) ﴾ [الأنبياء] شاكرون على نعمة الله الذى يرعاكم ويحفظكم فى المآزق والمواقف الصعبة ، واختار سبحانه موقف البأس أمام العدو ؛ ليعطينا إشارة إلى ضرورة إعداد المؤمن لمواجهة الكافر ، والأخذ بأسباب النجاة إذا تمَّتْ المواجهة .

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) ﴾ [الحديد]

فليست مُهمة الحديد فى الحياة أنه ينفع الناس فحسْب ، إنما له مهمة قتالية أيضاً ؛ لذلك قال : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] كما قال : ﴿ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ .. (٢٣) ﴾ [الإنسان] فإنْ كان القرآن للهداية فالحديد يُؤيِّد هذه الهداية ، حيث نضرب به على أيدى الكافرين العاصين ، ونحمى به صدور المؤمنين المصدِّقين ؛ لذلك قال ﴿ أَنزَلْنَا .. (٢٥) ﴾ [الحديد] أى : من أعلى مع أنه خارج من الأرض .

إذن : مسألة الحديد فى الأرض نعمة كبيرة من نعَم الله علينا ، بها نحفظ أنفسنا من العدو ، فالحق - سبحانه وتعالى - خلق الخَلْق ولم يتركه هكذا يُدبِّر أمره ، إنما خلقه ووضع له قانون حمايته وصيانته ، وهذا يستحقّ منّا الشكر الدائم الذى لا ينقطع .

ثم ينتقل السياق من الكلام عن داود إلى ابنه سليمان عليهما السلام ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

لا شكَّ أن سليمان ـ عليه السلام ـ قد استفاد بما علَّم الله به أباه داود ، وأخذ من نعمة الله على أبيه ، وهنا يزيده ربه ـ تبارك وتعالى ـ أموراً يتميز بها ، منها الريح العاصفة أى : القوية الشديدة ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا .. ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنبياء] وكأنها مواصلات داخلية فى مملكته من العراق إلى فلسطين[1] .

وفى موضع آخر قال : ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكًا لاَّ يَنبَغِى لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِى إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [ص]

رُخَاء : أى : هيِّنة ليِّنة ناعمة ، وهنا قال ﴿ عَاصِفَةً .. ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنبياء] فكأن الله تعالى جمع لهذه الريح صفة السرعة فى (عاصفة) وصفة الراحة فى (رخاء) ، وهاتان صفتان لا يقدر على الجمع بينهما إلا الله ، فنحن حين تُسْرِع بنا السيارة مثلاً لا تتوفر لنا صفة الراحة والاطمئنان ، بل يفزع الناس ويطلبون تهدئة السرعة .

أما ريح سليمان فكانت تُسرع به إلى مراده ، وهى فى الوقت نفسه مريحة ناعمة هادئة لا تُؤثِّر فى تكوينات جسمه ، ولا تُحدث له رجَّة أو قوة اندفاع يحتاج مثلاً إلى حزام أمان ، فمَنْ يقدر على

(١) « قال الحسن البصرى : كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل باصطخر يتغدى بها ويذهب رائحاً من اصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق واصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين اصطخر وكابل شهر كامل للمسرع » نقله ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٢٨) . وكابل : هى عاصمة أفغانستان حالياً .

الجمع بين هذه الصفات إلا الله القابض الباسط ، الذى يقبض الزمن فى حق قوم ويبسطه فى حق آخرين .

ومعنى : ﴿ بَارَكْنَا فِيهَا .. (٨١) ﴾ [الأنبياء] أى : بركة حسِّية بما فيها من الزروع والثمار والخصْب والخيرات ، وبركة معنوية حيث جعل فيها مهابط الوحى والنبوات وآثار الأنبياء .

وليس تسخير الريح لسليمان أنها تحمله مثلاً ، كما رأينا فى (السينما) بساط الريح الذى نراه يحمل شيئاً ويسير به فى الهواء ، أو : أنها كانت تُسيِّر المراكب فى البحار ، إنما المراد بتسخيرها له أن تكون تحت مراده ، وتأتمر بأمره ، فتسير حيث شاء يميناً أو شمالاً ، فهى لا تهُبُّ على مرادات الطبيعة التى خلقها الله عليها ، ولكن على مراده هو .

وإنْ كانت هذه الريح الرُّخَاء تحمله فى رحلة داخلية فى مملكته ، فهناك من الرياح ما يحمله فى رحلات وأسفار خارجية ، كالتى قال الله تعالى عنها : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ .. (١٢) ﴾ [سبأ] فيجوب بها فى الكون كيف يشاء ﴿ حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) ﴾ [ص]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) ﴾ [الأنبياء] أى عندنا علْم نُرتِّب به الأمور على وَفْق مرادنا ، ونكسر لمرادنا قانون الأشياء فنُسيِّر الريح كما نحب ، لا كما تقتضيه الطبيعة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) ﴾

فبعد أنْ سخَّر الله له الريح سخَّر له الشياطين ﴿يَغُوصُونَ لَهُ .. (٨٢)﴾ [الأنبياء] والغَوْصُ : النزول إلى أعماق البحر ؛ ليأتوه بكنوزه ونفائسه وعجائبه التى ادخرها الله فيه ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ .. (٨٢)﴾ [الأنبياء] أى : مما يُكلِّفهم به سليمان من أعمال شاقة لا يقدر عليها الإنسان ، وقد شرحت هذه الآية فى موضع آخر : ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ(١) وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ.. (١٣)﴾ [سبأ] فأدخل مرادات العمل فى مشيئته .

والمحاريب جمع محراب ، وهو مكان العبادة كالقِبْلة مثلاً ، والجِفَان : جمع جَفْنة ، وهى القَصْعة الكبيرة الواسعة التى تكفى لعدد كبير ، والقدور الراسيات أى : الثابتة التى لا تنقل من مكان لآخر وهى مبنية .

وقد رأينا شيئاً من هذا فى الرياض أيام الملك عبد العزيز رحمه الله ، وكان هذا القدْر من الاتساع والارتفاع بحيث إذا وقف الإنسان ماداً ذراعيه إلى أعلى لا يبلغ طولها ، وفى الجاهلية اشتهرت مثل هذه القدور عند ابن جدعان ، وعند مطعم بن عدى .

أما التماثيل فهى معروفة ، والموقف منها واضح منذ زمن إبراهيم عليه السلام حينما كسَّرها ونهى عن عبادتها ، وهذا يردُّ قول مَنْ قال بأن التماثيل كانت حلالاً ، ثم فُتن الناس فيها ، فعبدوها من دون الله فَحرِّمت ، إذن : كيف نخرج من هذا الموقف ؟ وكيف يمتنّ الله على نبيه سليمان أن سخر له من يعملون التماثيل وهى مُحرَّمة ؟

نقول : كانوا يصنعون له التماثيل لا لغرض التعظيم والعبادة ،

---

(١) الجواب : جمع جابية ، وهى الحوض الذى يُجبى فيه الماء ، وقال ابن عباس : كالحياض . وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك . [تفسير ابن كثير ٥٢٨/٣] .

إنما على هيئة الإهانة والتحقير ، كأنْ يجعلوها على هيئة رجل جبار ، أو أسد ضخم يحمل جزءاً من القصر أو شرفة من شرفاته ، أو يُصوِّرونها تحمل مائدة الطعام .. الخ . أى أنها ليست على سبيل التقديس .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الانبياء] حافظين للناس المعاصرين لهذه الأعمال حتى لا تؤذيهم الشياطين أو تفزعهم ، ومعلوم أن الشياطين يروْنَ البشر ، والبشر لا يروْنَهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف]

أما سليمان عليه السلام فكان يرى الجنَّ ويراقبهم وهم يعملون له ، وفى قصته : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ[1] .. ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ]

وفى هذا دليل على أن الجن لا يعلمون الغيب ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ]

ويُقال : إن سليمان ـ عليه السلام ـ بعد أنْ امتنَّ الله عليه ، وأعطاه مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، أخذ هؤلاء الجن وحبسهم فى القماقم حتى لا يعملوا لأحد غيره .

هذه مجرد لقطة من قصة سليمان ، ينتقل السياق منها إلى أيوب عليه السلام :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(١) المنسأة : العصا الغليظة . بلسان الحبشة . [القاموس القويم ٢/ ٢٦٢] .

(نَادَى) : قلنا النداء لمثلك طلب إقبال ، أما بالنسبة لله تعالى فهو بمعنى الدعاء ، فمعنى ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : دعاه وناداه بمطلوب هو : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء] والضُّر : ابتلاء من الله فى جسده بمرض أو غيره .

أما الضَّر بفتح الضاد ، فهو إيذاء وابتلاء فى أى شىء آخر غير الجسد ، ولا مانع أن يمرض الأنبياء لكن بمرض غير مُنفِّر .

لكن ، كيف ينادى أيوب عليه السلام ربه ويتوجع ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء] أليس فى علم الله أن أيوبَ مسَّه الضُّر ؟ وهل يليق بالنبى أنْ يتوجَّع من ابتلاء الله ؟

نعم ، يجوز له التوجُّع ؛ لأن العبد لا يَشْجَعُ على ربه ؛ لذلك فإن الإمامُ علياً رضى الله عنه لما دخل عليه رجل يعوده وهو يتألم من مرضه ويتوجع ، فقال له : أتتوجَّع وأنت أبو الحسن ؟ فقال : أنا لا أشجع على الله يعنى : أنا لست فتوة أمام الله .

ألا ترى أنه من الأدب مع مَنْ يريد أنْ يُثبِت لك قوته فيمسك بيدك مثلاً ، ويضغط عليها لتضجَّ وتتألم ، أليس من الأدب أن تطاوعه فتقول : آه وتُظهر له ولو مجاملة أنه أقوى منك ؟

ومعنى : ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء] ساعةَ أنْ ترى جَمْعاً فى صفة من الصفات يُدخل الله فيه نفسه مع خَلْقه ، كما فى : ﴿ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء] و ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون] و ﴿ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران] فاعلم أن الله تعالى يُثبت نفس الصفة لعباده ، ولا يبخسهم حقهم .

فالرحمة من صفات البشر ، كما جاء فى الحديث الشريف : « الراحمون يرحمهم الرحمن »[1] .

وفى « ارحموا مَنْ فى الأرض يرحمكم مَنْ فى السماء »[2] .

فالرحمة تخلُّق بأخلاق الحق سبحانه ، والنبى ﷺ يقول : « تخلَّقوا بأخلاق الله » .

إذن : للخَلْق صفة الرحمة ، لكن الله هو أرحم الراحمين جميعاً ؛ لأن رحمته تعالى وسعَتْ كل شىء . كما قلنا فى صفة الخَلْق : فيمكنك مثلاً أن تصنع من الرمل كوباً ، وتُخرجه إلى الوجود ، وتنتفع به ، لكن أخلْقك للكوب كخلْق الله ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ[3] وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ (٨٤) ﴾

استجاب الله لأيوب فيما دعا به من كَشْف الضُّر الذى أصابه ،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٦٠/٢) ، والترمذى فى سننه (١٩٢٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٤١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) أخرج أبو نعيم فى الحلية (٢١٠/٤) ، والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٢٧٧) وكذا فى المعجم الصغير (١٠١/١) من حديث عبد الله بن مسعود بلفظ : « ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء » .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٤٥٠٧/٦) : « اختُلفَ فى مدة إقامته فى البلاء ، فقال ابن عباس : كانت مدة البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال . وقال وهب : ثلاثين سنة . وقال الحسن : سبع سنين وستة أشهر . قلت : وأصح من هذا والله أعلم ثمانى عشرة سنة . رواه ابن شهاب عن النبى ﷺ ذكره ابن المبارك » .

وأعطاه زيادة عليه ونافلة لم يَدْعُ بهـا ، حيث كان فى قلَّة من الأهل ، وليس له عِزْوة .

﴿ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (٨٤) ﴾ [الأنبياء] ليعلـم كلُّ عابد أخلص عـبادته لله تعـالى ، أنه إذا مـسَّه ضُـرٌّ أو كَرْب ولجـأ إلى الله أجـابه الله إلى مَـا يريد ، وأعطاه فـوق الإجـابة نافلة أخـرى ، وكـأن ما حدث لنبى الله أيوب نموذج يجب أن يُحْتَذَى .

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ (١) كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) ﴾

قلنا : إن سـورة الأنبياء لا تذكـر قَصَـصاً كامـلاً للأنبيـاء ، إنما تعطينا طَرَفـاً منها ، وهنا تذكـر إسماعـيل وإدريس وذا الكفل بالاسم فقط .

ثم يقول تعالى : ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) ﴾ [الأنبياء] كأن الصبر فى حَدِّ ذاته حـيثيـة يُرسل الله من أجلها الرسـول ، ولنتأمل الصـبر عند إسـماعـيل ، وكيف أنه صـبر عـلى أنْ يذبحه أبوه برؤيا رآها ، فـأيُّ صبر أعظم من هذا ؟

ثم يعـيش فى صغَـره ـ وحـتى كبـر ـ فى وَاد غيـر ذى زرع ، ويتحمل مشاق هذه البيئة الجـافة المجْدبة ، ويخضعُ لقول الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

وكأن فى خروجه من هذه الأرض وطلبه لأرض أخرى فيها النعيم

(١) قال ابن كثـير فى تفسيـره (٣/١٩٠) : « الظاهر من السياق أنه ما قـرن مع الأنبياء إلا وهو نبى . وقال آخرون : إنما كان رجلاً صالحـاً وكان ملكاً عادلاً وحكماً مقسطاً ، وتوقف ابن جرير فى ذلك والله أعلم » .

والزروع والثمار تأبّياً على إقامة الصلاة ؛ لذلك نراه يُفضّل البقاء في هذا المكان ، ويزهد في نعيم الدنيا الذي يتمتع به غيره امتثالاً لأمر الله .

وتكون النتيجة أنْ أعطاه الله ما هو خَيْر من الزروع والثمار ، أعطاه عطاءً يفخر به بين جميع الأنبياء ، هو أنه جعل من نسله النبي الخاتم محمد بن عبد الله ، وأيُّ ثمرة أحسن من هذه ؟

وإدريس : وهو من الجيل الخامس من أولاد آدم عليه السلام ، وبعض العلماء يقولون هو « أوزوريس » ، ونحن لا نقول إلا ما قاله القرآن (إدريس) وأهل السير يقولون : إن نبي الله إدريس أول مَنْ علّمه الله غزل الصوف وخياطة الملابس ، وكانوا قبلها يسترون عوراتهم بقطع الجلود .

وهو أول مَن استخدم النجوم لمعرفة الاتجاهات والأحوال ، وأول مَنْ خط بالقلم ، هذه يُسمُّونها أوليات إدريس .

وذا الكفل : الكِفْل هو الحظ والنصيب ، فلماذا سُمِّي « ذو الكفل » ؟ ذو الكفل ابن أيوب عليه السلام ، ويظهر أن أولاد أيوب كانوا كثيرين ، إنما اختص الله ذا الكفل بالرسالة ، وكان هذا حظه دون غيره من أبناء أيوب ؛ لذلك سُمِّي « ذو الكفل »[(١)] .

---

(١) قال مجاهد عن ذي الكفل : رجل صالح غير نبي ، تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل ففعل ذلك فسمي ذا الكفل . [أورده ابن كثير في تفسيره ٣/١٩٠] ، وقد أورد القرطبي في تفسيره (٦/٤٥٠٨) أقوالاً أخرى منها :

- كان رجلاً عفيفاً يتكفل بشأن كل إنسان وقع في بلاء أو تهمة أو مطالبة فينجيه الله على يديه .
- سمي ذا الكفل لأن الله تعالى تكفل له في سعيه وعمله بضعف عمل غيره من الأنبياء الذين كانوا في زمانه .

وقد جاءت هذه المادة (كَفَل) أيضاً في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ .. (٢٨) ﴾ [الحديد]

جاءت هذه الآية بعد الكلام عن عيسى - عليه السلام - والذين آمنوا به واتبعوه ، يقول تعالى : يا مَنْ آمنتم بالرسل السابقين ، وآخرهم عيسى - عليه السلام - آمنوا بالرسول الخاتم ليكون لكم كفلان أي : نصيبان وحظَّان من رحمةَ الله ، نصيبٌ لإيمانكم بعيسى ، ومَنْ سبقه من الرسل ، ونصيبٌ لإيمانكم بمحمد ﷺ .

ثم يقول تعالى في وصفهم ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) ﴾ [الأنبياء] فوصف كلَّ الأنبياء بالصبر ؛ لأنهم تعرَّضوا لأنواع الاضطهاد والإيذاء والأهوال في سبيل دعوتهم ، وصبروا على هذا كله .

﴿ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (٨٦) ﴾

والرحمة هنا بمعنى النبوة ، وهي أمر عظيم وعطاء كبير ، فإنْ تحمَّلوا في سبيله بعض المتاعب ، فلا غضاضةَ في ذلك .

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٨٧) ﴾

« ذو النون » : هو سيدنا يونس بن متى صاحب الحوت ، والنون من أسماء الحوت ، وجمعه (نينان) كحوت وحيتان ؛ لذلك

سُمِّيَ به ، وقد أُرسل يونس عليه السلام إلى أهل (نِينَوَى) من أرض الموصل بالعراق .

وقد قال النبى ﷺ لعداس : « أنت من بلد النبى الصالح : يونس ابن متى »[1] .

والنون أيضاً اسم لحرف من حروف المعجم ، لكن قد يوافق اسمُ الحرف اسماً لشىء آخر ، كما فى (ق) وهو اسم جبل ، وكذلك السين ، فهناك نهر اسمه نهر السين ، وهكذا تصادف أسماء الحروف أسماء أشياء .

وقوله تعالى : ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا .. (٨٧)﴾ [الأنبياء] مادة (غضب) نأخذ منها الوصف للمفرد . نقول : غاضب وغضبان ، أمّا (مغاضب) فتعطى معنى آخر ؛ لأنها تدل على المفاعلة ، فلا بُدَّ أن أمامك شخصاً آخر ، أنت غاضب وهو غاضب ، مثل : شارك فلان فلاناً .

لكن فى أصول اللغة رجحنا جانب الفاعلية فى أحدهما ، والمفعُولية فى الآخر ، كما نقول : شارك زيدٌ عَمْراً ، فالمشاركة حدثتْ منهما معاً ، لكن جانب الفاعلية أزيد من ناحية زيد ، فكلٌّ واحد منهما فاعل مرة ومفعول أخرى .

واللغة أحياناً تلحظ هذه المشاركة ، فتُحمِّل اللفظ المعنيين معاً : الفاعل والمفعول ، كما جاء فى قَوْل الشاعر العربى الذى يصف السير فى أرض معقربة ، والتى إذا سِرْت فيها دون أنْ تتعرض للعقارب فإنها تسالمك ولا تؤذيك ، فيقول :

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤٢١) . وفيه : أن عداساً قال : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ : ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبى . فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه .

قَدْ سَالَمَ الحياتُ منْه القَدَمَا   الأفْعُوانَ[١] والشُّجاعَ القَشْعَمَا[٢]

أى : أنه سَالَم الحيات ، فالحيات سالمتْه ، فالمسالمة منهما معاً ، لكن غلب جانب الحيات فجاءت فاعلاً ؛ لأن إيذاءَها أقوى من إيذائه ، فلما أبدل من الحيات (الأفعوان والشجاع القشعما) وهما من أسماء الحيات كان عليه أنْ يأتى بالبدل مرفوعاً تابعاً للمبدل منه ، إلا أنه نصبه فقال : الأُفْعَوانَ والشجاعَ القشعمَا ؛ لأنه لاحظ فى جانب الحيات أنها أيضاً مفعولٌ .

فَممَّ غضب ذو النون ؟ غضب لأن قومه كذبوه ، فتوعدهم إنْ لم يتوبوا أنْ يُنزل بهم العذاب ، وأتى الموعد ولم ينزل بهم ما توعدهم به ، فخاف أنْ يُكذِّبوه ، وأن يتجرَّأوا عليه ، فخرج من بينهم مغاضباً إلى مكان آخر ، وهو لا يعلم أنهم تابوا فأخَّر الله عذابهم ، وأجّل عقوبتهم .

وفى آية أخرى يُوضِّح الحق سبحانه هذا الموقف : ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

أى : لم يحدث قبل ذلك أنْ آمنتْ قرية ونفعها إيمانها إلا قرية واحدة هى قوم يونس ، فقد آمنوا وتابوا فأجّل الله عذابهم .

إذن : خرج يونس مُغَاضباً لا غاضباً ؛ لأن قومه شاركوه ، وكانوا سبب غضبه ، كما حدث فى مسألة هجرة النبى ﷺ فرسول

(١) الأفعوان : ذَكَر الأفاعى . والقشعم : الضخم . [لسان العرب ـ مادتا : فعا ، قشعم] .

(٢) أورد ابن منظور فى لسان العرب (مادة : شجع) وعزاه للأحمر ولكن بلفظ « الشجاع الشجعما » وقال : الشجعم : الضخم منها ، وقيل : هو الخبيث المارد منها ، ثم قال : « نصب الشجاع والأفعوان بمعنى الكلام ؛ لأن الحيات إذا سالمت القدم فقد سالمها القدم ، فكأنه قال : سالم القدم الحيات ، ثم جعل الأفعوان بدلاً منها » .

الله هاجر من مكة لكنه لم يهْجرهَا ، فسُمِّيَتْ هجرة ؛ لأن أهل مكة هجروا رسول الله أولاً ، وهجروا دعوته وألجئوه أيضاً إلى الهجرة وتَرْك مكة ، فهم طرف فى الهجرة وسببٌ لها .

لذلك قال ﷺ مخاطباً مكة : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلىَّ ، ولولا أنَّ أهلك أخرجونى منك ما خرجْتُ »(١) .

وقد أخذ المتنبى(٢) هذا المعنى ، وعبَّر عنه بقوله :

إذَا ترحلْتَ عَنْ قَوْمٍ وقَدْ قَدَرُوا ... ألاَّ تُفَارِقَهُمْ فالراحلُون هُمُ

وقوله تعالى : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] البعض ينظر فى الآية نظرةً سطحية ، فيقولون : كيف يظن يونس أن الله لن يقدر عليه ؟ وهذا الفَهْم ناشىء عن جَهْل باستعمالات اللغة ، فليس المعنى هنا من القدرة على الشىء والسيطرة ، ولو استوعبتَ هذه المادة فى القرآن (قَدَرَ) لوجدت لها معنى آخر ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق] معنى قُدر عليه رزقه يعنى : ضُيِّق عليه .

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإسراء]

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٣١٠٨) ، والدارمى فى سننه (٢/٢٣٩) من حديث عبد الله بن عدى بن حمراء الزهرى قال : رأيت رسول الله ﷺ وهو على راحلته واقفاً بالحزورة يقول .. الحديث .

(٢) هو : أحمد بن الحسين الكندى أبو الطيب المتنبى ، الشاعر الحكيم وأحد مفاخر الأدب العربى . ولد ٣٠٣ هـ بالكوفة فى محلة « كندة » ونشأ بالشام . ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس . وفد على سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب فمدحه ومضى إلى مصر فمدح كافور الإخشيدى ثم هجاه . قتل بالنعمانية وابنه وغلامه عام ٣٥٤ هـ (الأعلام للزركلى ١/١١٥) .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [الفجر]

إذن : فقوله : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء] أى : أن يونس لما خرج من بلده مُغاضباً لقومه ظنَّ أن الله لن يُضيِّق عليه ، بل سيُوسِّع عليه ويُبدله ببلده مكاناً أفضل منها ، بدليل أنه قال بعدها ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ(١) أَن لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء] يريد منه سبحانه تنفيس كربته ، وتنفيس الكربة لا يكون إلا بصفة القدرة له .

فكيف يستقيم المعنى لو قلنا : لن يقدر عليه بمعنى : أن الله لا يقدر على يونس(٢) ؟

إذن : المعنى : لن يُضيِّق عليه ؛ لأنه يعلم أنه رسول من الله ، وأن ربه لن يُسْلمه ، ولن يخذله ، ولن يتركه في هذا الكرب .

وقد وُجِدَتْ شبهة فى قصة يونس - عليه السلام - فى قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]

فكيف يلبث فى بطن الحوت إلى يوم يُبعثون ، مع أن يونس سيموت ، وسيأتى أجَل الحوت ويموت هو أيضاً ، أم أن الحوت سيظل إلى يوم القيامة يحمل يونس فى بطنه ؟

---

(١) قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل . وكذا روى عن ابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير والحسن وقتادة . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٣/١٩٢] .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٤٥١١/٦) : « هذا قول مردود مرغوب عنه ؛ لأنه كفر . وذكر الثعلبي وقال عطاء وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه : فظن أن لن نضيق عليه » .

وفات هؤلاء نظرية الاحتواء فى المزيجات ، كما لو أذبتَ قالباً من السكر فى كوب ماء ، فسوف تحتوى جزئيات الماء جزئيات السكر ، والأكثر يحتوى الأقل ، فقالب السكر لا يحتوى الماء ، إنما الماء يحتوى السكر .

فلو مات الحوت ، ومات فى بطنه يونس ـ عليه السلام ـ وتفاعلت ذراتهما وتداخلتْ ، فقد احتوى الحوتُ يونسَ إلى أن تقوم الساعة ، وعلى هذا يظل المعنى صحيحاً ، فهو فى بطنه رغم تناثر ذراتهما[1] .

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

استجاب الله نداء يونس ـ عليه السلام ـ ونجَّاه من الكرب ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء] إذن : فهذه ليست خاصة بيونس ، بل بكل مؤمن يدعو الله بهذا الدعاء ﴿ وَكَذَٰلِكَ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : مثل هذا الإنجاء نُنْجى المؤمنين الذين يفزعون إلى الله بهذه الكلمة : ﴿ لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] فيُذهب الله غَمَّه ، ويُفرِّج كَرْبه .

لذلك يقول ابن مسعود رضى الله عنه : « ثوِّروا القرآن » يعنى : أثيروه ونقِّبوا فى آياته لتستخرجوا كنوزه وأسراره[2] .

---

(١) قال قتادة فى قوله تعالى ﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات] قال : لصار له بطن الحوت قبراً إلى يوم القيامة . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ١٢٧/٧ ، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم] .

(٢) فى حديث عبد الله : أثيروا القرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين . قال شمر : تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به فى تفسيره ومعانيه . [لسان العرب - مادة : ثور] .

وكان سيدنا جعفر الصادق من المثوِّرين للقرآن المتأملين فيه ، وكان يُخرِج من آياته الدواء لكل داء ، ويكون كما نقول (روشتة) لكل أحوال المؤمن .

والمؤمن يتقلَّب بين أحوال عدة منها : الخوف سواء الخوف أنْ يفوته نعيم الدنيا ، أو الخوف من جبار يهدده ، وقد يشعر بانقباض وضيق فى الصدر لا يدرى سببه وهذا هو الغَمُّ ، وقد يتعرض لمكر الماكرين ، وكَيْد الكائدين ، وتدبير أهل الشر .

هذه كلها أحوال تعترى الإنسان ، ويحتاج فيها لمَنْ يسانده ويُخرجه مما يعانيه ، فليس له حَوْل ولا قوة ، ولا يستطيع الاحتياط لكل هذه المسائل .

وقد تراوده بهجة الدنيا وزُخْرفها ، فينظر إلى أعلى ممَّا هو فيه ، ويطلب المزيد ، ولا نهايةَ لطموحات الإنسان فى هذه المسألة ، كما قال الشاعر :

تَمُوتُ مع المرْءِ حَاجَاتُه ... وتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِى

والناس تحرص دائماً على أن تستوعب نِعَم الحياة وراحتها ، وهم فى ذلك مُخْطئون ؛ لأن تمام الشيء بداية زواله ، كما قال الشاعر :

إذَا تَمَّ شَىءٌ بَدَا نَقْصُه ... تَرقَّبْ زَوَالاً إذَا قيلَ تَم

لأن الإنسان ابنُ أغيار ، ولا يدوم له حال من صحة أو مرض ، أو غنىً أو فقر ، أو حزن أو سرور ، فالتغيُّر سمةَ البشر ، وسبحان مَنْ لا يتغير ، إذن : فماذا بعد أنْ تصل إلى القمةَ ، وأنت ابنُ أغيار ؟

ونرى الناس يغضبون ويتذمرون إنْ فاتهم شيء من راحة الدنيا ونعيمها ، أو انتقصتهم الحياة شيئاً ، وهم لا يدرون أن هذا النقص

هو الذى يحفظ عليك النعمة ، ويدفع عنك عيون الحاسدين فيُسلِّم لك ما عندك .

فتجد مثلاً أسرة طيبة حازتْ اهتمام الناس واحترامهم ، غير أن بها شخصاً شريراً سيئاً ، يعيب الأسرة ، فهذا الشخص هو الذى يدفع عنها عُيون الناس وحَسَدهم .

وقد أخذ المتنبى هذا المعنى ، وعبَّر عنه فى مدحه لسيف الدولة[1] ، فقال :

شَخَصَ الأنَامُ إلَى كَمَالِكَ فَاسْتَعِذْ ... مِنْ شَرِّ أعيُنِهِمْ بِعَيْبٍ وَاحِدِ

نعود إلى (روشتة) سيدنا جعفر الصادق التى استخلصها لنا من كتاب الله ، كما يستخلص الأطباء الدواءَ والعقاقير من كتب الحكماء :

يقول : عجبتُ لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران] فإنِّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَانقَلَبُوا[2] بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ .. (١٧٤) ﴾ [آل عمران]

وعجبتُ لمَنْ اغتمَّ ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الانبياء] فإنِّى سمعت الله

---

(١) هو : على بن عبد الله بن حمدان أبو الحسن سيف الدولة الحمدانى ، صاحب المتنبى وممدوحه ، ولد فى ميافارقين (بديار بكر) عام ٣٠٣ هـ ، ونشا شجاعاً مهذباً على الهمة ، امتلك واسطاً ودمشق وحلب وتوفى فيها عام (٣٥٦ هـ) عن ٥٣ عاماً . الاعلام للزركلى (٣٠٣/٤) .

(٢) انقلب : رجع وتحوَّل إلى وضعه الأول ، أو إلى وضع آخر . فانقلبوا : أى : رجعوا . [القاموس القويم ١٢٩/٢] .